



وحدي وأمامي النهر

غسان زقطان

قلبي ظنّان يا اخي
وتمثالي أعمى
وقد فجعتُ بأنباءِ بغدادَ التي ساقها مهاجرون هواة
أيّهم ممّا! كانوا يعبرون بالصدفة على الجسر

النوايا في المرافئ
مشوّشة كما تركها اصحابها
وناقصة كما تركها القتلى
وحيث اشار صاحبنا، الذي تعرفه، ذهبنا لا نلوي ولا يحزنون

بلدنا بعيد
ونيتنا حسنة

تركنا كعادة المنفيين بيوتا اجمل من الطرق
ونساءً اوفى من العابرات
ولم يشننا ذلك او يسرق همتنا!

وحلمنا كعادة المقيمين بطريق اجمل من البيت
ونساءً يؤثّسن اجسادنا ويبدلن اللغة
ولم يأخذنا ذلك الى التلال او البحر!

ظهر مشاةً من جبهةٍ، كنا نسمع هديرها
ولا نراها،
بعيونٍ مرهقةٍ وأقدامٍ مشققةٍ
نقضوا الوحل على الرخام
وجفّقوا أحذيتهم على اشارات «المؤسس الباني»
وكنا ننظر،
فكأننا لا سمعنا ولا رأينا!

كان يمكن تذكّر احلامهم الشبقة وملاحقة اشباحها
ولمس ارداف النساء لمجرد التأكد!

لا رحمة للميت في هذه الأصقاع
ولا أجر للعارفين

ليس الا الإصغاء الى الجبل حيث تتوالد الكهوفُ
وتنمو العتمة مثل نبات مفترس...!

لم تأخذنا صيحة الطائر مع انبلاج الفجر
ولم نتعثر بحكمة من سبقونا وهو اجسهم
ولكن ما رأيناه يُروى!

.... ثم بدأ عبيدٌ يخرجون من الفجوة ويتسلقون الأسوار،
بينما الابواب مشرعة!
ويهبطون الى المدينة... ويحومون في اسواقها
وكان هناك رجال وصبيّة يصيحون على العتمة
ويهشونها بالطبول والرقص
ونساء يتعرّين على حافة الهاوية لالهء الموت عن اولادهنّ،
كما فسّر لنا رجل من العامة،

فحمدنا منفانا ومقامنا!

وقلنا في انفسنا:

لسنا سوى منفيين مشاة لا تترك ظلالنا خطوطاً على الأرض
ومثل نساجين نمسك خيوطاً ونغزلها لنصنع ذكريات تتنفس خلفنا وهي تتبع خطانا مثل كلاب
مشوشة!

فمن نحن لنكره ما لا نعرف!
ومن نحن لنحب ما لا شأن لنا به!

ظهر فتى غيور
كانت غيرته، ما تزال تلمع على السياج
عندما مضى
وتقطع الدرب على الققطط والمارة ورائحة الحبق
عندما مضى المهاجرون الهواة الذين جاؤوا بنبأ بغداد
وتنكئ على نهدي فتاة ظهرت من الظلال وخلعت
حجابها السميكة على العشب قريباً من احذية الجنود
عندما انتقلت الى حلمٍ آخر!

وكان يمكن اعتبار ذلك كله، وترديده
لو لم يمت في الرابعة وست عشرة دقيقة من تلك الصبيحة فيلسوف شاب في رام الله
محاطاً بتلاميذه ومريديه وثلاثة اصدقاء رجلين وامرأة!
كان يمكن، ايضاً، تذكر اشياء اخرى متفرقة وازافتها لاطهار الأسي وانضاج الخيانة
وفي مقدمتها:
التمثال الليلكي لبوذا

او صورة مالك البيت في صالة الشقة المفروشة
وهو يحرق فينا من موته الكلاسيكي المحافظ...!

التأمل المنزوي للأب

التواطؤ العميق مع «البنات» بينما هو يحتضر تحت جهاز الاوكسجين

صوت المرأة في الهاتف وهي تخبيء خيانتها
في طبقاته السميكة العشر!

كان يمكن تدوين موته او تذكر اشياء متفرقة في سياق اخر، كثقل جسده وبياض عينيه
فيما يشبه التباساً اخيراً
ثم اطلاق الضوء في العربة

لولا انه كان في وقفته منحرفاً قليلاً عن العالم، كما حدث لقسطنطين كفاقي الذي لم يكن
يعتني به كغيره من الشعراء!

قلبي ظنّان يا أخي
ووقفتي ناجزة
ولن يحسد احد بزوابع رأسي
كما لم يعد لي ثقة بعابري الليل هؤلاء

قلبي ظنّان ومريدي عصاة
في الأودية
طيور لو حدقت النظر وصيادون
لهم في العتمة رائحة المشتاق
وهيئته

ولهم في الضوء مآرب أخرى
وأضاليل
وسبل يلهث فيها الضبع

وينأى القاصد والمقصود

وفيهم:

نقأخون سعاة في الأبواق

وعطّارون دهاة في الأسواق

وقصّاصون حفاة خلف العبد

وعيّارون دعاة في ضفتهم

حيث ولدنا

بيضاً من آباءٍ سود

وفيهم ما يغني عني ويزيد

ضيوفي عمي ودراوئش

كما اسلفت،

ومذكورون كما ظهروا

في السرّ

رواة محروسون

بغفلتهم

ولدوا

وسهوا

لو ماتوا انتبهوا!

ولهم في المعنى منزلة الجنّي

ولغة الجان

زقطان: وحدي وأمامي النهر

وفي المبني جسد المرتاب
وخفته.....

ولأمر لا أذكره الآن.....
ابتعد قليلاً... ثم استدار عني ونظر في النهر! ما عاد عندي ما اعطيك اياه سوى هذا وأشار
الى الماء

ثم مسح بيديه على وجهي فانتبهت
فخيل لي أنني في بستان في بغداد كنت
مررت بسوره وأنا صبي.....
وكان هناك مركب صيد في العتمة
ومجداف لئين ينقل رائحة القداح عبر النهر
واصوات خافتة تأتي من الكرخ
ويدا لي ان هذا كله تنفس
مالا اراه وقد اجتمع...

فنهضت وتلفت حولي
فاذا انا وحدي وأمامي النهر
وفيه جاريتان سوداء وبيضاء
وكنت اذا نمت أو سهوت يأتي ويجلس أمامي ويحدثني فأنصت ونبقي كذلك حتى يمسخ بيديه
على وجهي فأفيق وقد انتقلت من ارض الى ارض ومن وقت الى وقت ...
الى أن بلغت ما بلغت في تلك الليلة على ضفة دجلة وفيه الجاريتان
فادركت ما انا فيه وتشوقت لمن فارقت

فقلت في ذلك:

وأفضح امري على الغارب
واحلم خلف الرضى الهارب

ارتب سرك للعالمين
واشعل ناراً من الياسمين

واجمع خلفك ظل الحضور
كأني ذهابك في الذاهبين
ولي في اللذاذة ما لا يرد
كأني شعاعك لما تبين
لعبت ودورت روح الحياة
وأطلقت خيلاً من المرسلات
فما لي عليك وقد جيء بي
ومالي سواك وقد طيف بي
وما ظل من خلسة التائب
سلام الذهاب على الذهاب
وفي النوم ما لا يرى صاحبي
كانك سكري وقد دار بي
كما ترتجى لعبة اللاعب
وركبت شرباً على الشارب
كما جيء بالغلب للغالب
طواف الرضي على الواهب

ثم اصعدته في دعائي وافضت في ذكر فضله عليّ وقد حضرني قوله لي وهو بهم بوداعي:

اما ذاك الذي لم تسألني عنه
فهو سرّك الذي لك دون غيرك
وليس لي به شأن
ولا اعينك عليه
ولا اخرجك منه

وكنت سألته في كل شيء سواه

فقد أدبني
حين جلست صغيراً بين يديه
وكان يعيد عليّ القول ثلاثاً
قبل صياح الديك
فانصت
ثم اعيد
وفي الثالثة ازيد عليه